أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي الأندلسي (٣٠٣ هـ - ٤٠٣ هـ) دراسة في سيرته وشعره في السجن

د . فورار امحمد بن لخضر (*)

عرفت الأندلس في عهد الخلافة الأموية طائفة من الشعراء والكتاب. كان بعضهم قد عاصر عهد الإمارة وأدرك عصر الخلافة . وأسهم فيه بنشاط كبير كابن عبد ربه ، ومنهم من ولد ونشأ وترعرع في عصر الخلافة حتى شهد ضعفها ، ونفوذ الدولة العامرية بقيادة الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر ، ثم زوال هذه الدولة بنشوب نار الفتنة العظمى ، كيوسف بن هارون الرمادي الذي لمع ذكره في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

ونراه جديرا بالدراسة والتعريف ، والتركيز على شعره الذي كشف فيه عن حاله في السجن واشتياقه للمحبوب والأقرباء والعالم الخارجي، في قصائد ومقطوعات شعرية بمقدمات غزلية أو في وصف الطبيعة ، أو بغير مقدمات .

التعريف بيوسف بن هارون الرمادي الأندلسي :

اسمه ونسبه :

هو يوسف بن هارون الكندي [١] ، أبو عمر المعروف بالرمادي [٢] ، وقد تضاربت الآراء في تعليل هذه النسبة وكثرت ، وسأكتفي ببعضها التي

(*) جامعة بسكرة - الجزائر

في اعتقادي أنها قريبة من الصواب ، قال ابن بشكوال : « كان يلقب بأبي جنيش فنقل إلى الرمادي » [٣] . أما الحميدي فقال : « أظن أن أحد آبائه كان من رمادة موضع بالمغرب » [٤] ، دون تحديد . وقد نقل ابن خلكان [٥] هذا الخبر عن الحميدي ، وابن سعيد يورد أن الرمادة من قرى شلب [٦] .

أما ابن حيان قد ذكره مرة فقال : يوسف بن هارون الشاعر الرمادي [٧] ، وقال ثانية: يوسف بن هارون البطليوسي الشاعر المعروف بأبي جنيش [٨] . وأما (آنخل بالنثيا) فإنه يرى أن الرمادي ليس نسبة إلى رمادة - كما يعتقد البعض - وإنما هو الصورة العربية لكنيته بالإسبانية الدارجة وهو (أبو جنيش) ، والجنيش في الإسبانية هو الرماد [٩] .

وأمام تضارب هذه الآراء فإنه يمكن اعتماد ابن حيان على أن الرمادي صفة ، وهو من أسرة تتصل بقبيلة كندة ، ولذا يقال له: يوسف بن هارون الكندي [١٠] .

أصله وبلده :

اختلفت الروايات في أصله كما اختلفت حول لقبه ، فقد قال الحميدي: إنه قرطبي [١١] ، وكذلك قال الضبي [١٢] ، وابن بشكوال [١٣] ، وياقوت الحموي [١٤] ، وابن خلكان [١٥] . أما ابن سعيد فذكر أنه من رمادة إحدى قرى شلب - كما تقدم - وقال في موضع آخر : «كان بنو هارون قد ملكوا شنتمرية الغرب ، وتوارثوها » [١٦] . وشنتمرية من أعمال شلب ، فكان قوم منهم في شنتمرية وقوم في رمادة - إن صح وجودها - وغيرها .

وأما ابن حيان فذكر أنه من بطليوس [١٧] كما تقدم . وأما من قال : إنه قرطبي؛ فلأن الشاعر الرمادي عاش أكثر حياته في قرطبة فنسب إليها.

يستفاد من هذه الروايات أن الرمادي من أصل بطليوسي [١٨] ، وعاش أكثـر أيامـه في قرطبة فنسب إليها .

مولـده ونشأتـه :

ولد الرمادي في السنوات الأولى من المائة الرابعة؛ لأنه كان حـين قـدم أبو علي القالي إلى الأندلس سنة ٣٣٠ هـ [١٩] شابا يقول الشعـر ، يتحـدث فيـه عن شعـرات بيض نزلن بمفرقه ، يقول [٢٠] :

وثلاث شيبات نزلن بمفرقي فعلمتُ أن نزولهن رحيلي

ويقول أحمد هيكل : « إذا فرضنا أنه كان حينئذ في حدود السابع والعشرين من عمره ، كان مولده نحو سنة ٣٠٣ هـ » [٢١] . ولا نعلم متى كان انتقال الرمادي إلى قرطبة ، فمن نسبته إليها وعلاقته بعلمائها وخلفائها والحاجب المنصور بن أبي عامر – يمكن القول بأنه نشأ في قرطبة وعاش فيها أكثر أيامه، « ويبدو أنه قصدها للدراسة ، ثم أصبح مدرسا فيها » [٢٢]، كما تقدم .

وأما عن دراستـه فإنه اكتسب صناعة الأدب من شيخه أبي بكر بن هذيل الكفيف [٢٣] ، الذي أخذ عنه الصنعة الشعريـة حتى جاراه [٢٤] . وقـد أورد ابن بسام ما حكاه عن نفسـه ، قـال : « بكرت إلى أبي المطرّف بن مثنى فألفيـت قد بكّـر قبلي يحيى بن هذيـل ، فقـال لي : ما عندك ؟ فقلـت : ليس عندي كبيرُ معنى ، ولكـن ما عندك أنت ؟ فأخرج من كمّه قصيدتـه التي يقول فيها في صفة الحمامة :

ومُرنّة والدجْن ينسج فوقهـا بُردين من طلّ ونوء بـاكِ
مالت على طيّ الجناح وإنما جعلت أريكتها قضيب أراك
وترنـّمت لَحنين قد حلّتْهمـا بغناء مُسمعـة وأنّة شـاك

ففقدتُ من نفسي لفرط تلهفي نفس الحياة وقلتُ مَن أبكاك

فأنشدنيها ، وأنا أعد محاسنه فيها ، فلما أكملها قال لي : انصرف إلى المكتب وتأدّب حتى تُحكم مثل هذا فكأنه حركني ، واتفق أنه لم يخرج إلينا أبو المطرف ذلك اليوم ، فبكرت من الغد إليه وأنشدته قصيدتي التي أقول فيها في وصف الحمامة :

أحمامةً فوق الأراكة تنثني بحياة من أبكاك ما أبكاكِ

أما أنا فبكيتُ من حرق الهوى وفراق من أهوى ، أأنتِ كذاك ؟

قال : فلما سمعها ابن هذيل قال : عارضتني ! قلت: لا والله إلا ناقضتك ، فقال : اذهب فقد أخرجتك من المكتب » [٢٥] .

كما تلقى الرمادي أبا علي القالي لما قدم إلى الأندلس ، زمن عبد الرحمن الناصر ، ومدحه بقصيدة مطلعها [٢٦] :

من حاكمٌ بيني وبين عذولي الشجوُ شجوي والعويل عَويلي

وانضم الرمادي إلى جماعة المستفيدين من القالي ، وقرأ عليه كتاب النوادر [٢٧] . وأما عن قيامه بالتدريس في قرطبة بعد أن بلغ درجة تسمح له بذلك ، فقد قال ابن سعيد في ترجمة الأمير أرقم بن موسى بن ذي النون [٢٨] : كان قد قرأ في قرطبة على الرمادي الشاعر [٢٩] .

وروى عنه مصعب بن الفرضي [٣٠] ، وأخذ عنه ابن عبد البر قطعة من شعره وضمنها بعض كتبه [٣١] .

وقد عاصر الرمادي عددا من حكام الأندلس ، وكان له في عهد كل منهم نشاط شعري ملحوظ ؛ فقد عاصر عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وله قصيدة شعرية - كما تقدم - في استقبال أبي علي القالي ، ثم

ارتفع شأنه في أيام الحكم المستنصر بالله الخليفة ، وأصبح مقدما على سائر الشعراء [٣٢] .

ورحل الرمادي في هذه الفترة من حياته متجها نحو صاحب (سرقسطة) [٣٣] عبد الرحمن بن محمد التجيبي ، ومدحه بقصيدة مطلعها [٣٤] :

قفوا تشهدوا بثي وإنكار لائمي عليّ بكائي في الرسوم الطواسمِ

وقال الرمادي عن نفسه: قد وصلني ثلاثمائة دينار ثمن الميمية [٣٥] .

ووراء هذه الرحلة قصة حبه (خَلوة) ، أوردها ابن حزم في طوق الحمامة ، قال:«إن يوسف بن هارون الرمادي كان مجتازا عند باب العطارين بقرطبة، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه ، وتخلل حبها جميع أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة، فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض ، فلما صارت بين رياض بني مروان - رحمهم الله - المبنية على قبورهم في مقبرة الربض خلف النهر - نظرت منه منفردا عن الناس ، لا همة له غيرها ، فانصرفت إليه ، فقالت له : ما لك تمشي ورائي ؟ فأخبرها بعظيم بليته بها . فقالت له : دع عنك هذا ، ولا تتطلب فضيحتي ، فلا مطمح لك في ألبتة ، ولا إلى ما ترغبه سبيل، فقال: إنني أقنع بالنظر، فقالت: ذلك مباح لك ، فقال لها: يا سيدتي أحرة أم مملوكة؟ قالت: مملوكة، فقال لها: ما اسمك ؟ قالت: خَلوة ، قال : ولمن أنت ؟ فقالت له : علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع المحال ، فقال لها : يا سيدتي، وأين أراك بعد هذا ؟ قالت: حيث رأيتني اليوم في تلك الساعة من كل جمعة. فقالت له : إما أن تنهض أنت وإما أنهض أنا ؟ فقال لها : انهضي في حفظ الله » [٣٦].

وقد لازم الرمادي باب العطارين عله يراها ، ولكنه ما وقع على أثر لها ، وهي (خلـوة) التي يتغزل بها في أشعاره [٣٧] . ثم وقع بعـد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها إلى سرقسطة ، ولما عاد إلى قرطبة وجدها عند رجل من إخوانه [٣٨] .

يتضـح من هذه الرواية أن الرمادي كان على صلة جيدة بالتجيبي صاحب سرقسطة .

وكذلك من رحلاته رحلته إلى ابن الوبلة فرحون [٣٩] بن عبد الله، حيـن كان واليـا على شنترين [٤٠] للحكم المستنصر بالله [٤١] .

من الروايتين السابقتين نستخلص أن الرمادي في هذه الفترة من عمره ، كان يعيش عيشا مترفا يجوب الأقاليم الأندلسية ، وينزل ضيفا على ولاتها وأمرائها ، وينال أعطياتهم بمدحه لهم .

ولكن هذا الترف وهذا النعيم لم يدوما؛ لأن حاله بدأت تسوء مع الخليفة الحكم ، وسببها يرجع إلى الخليفة الذي أصدر أمرا بقطـع الخمر من الأندلس واستئصال شجرة العنب من جميع أعماله [٤٢] ، فبرز الرمادي يبدي أسفه ويتوجع لشاربيها [٤٣] ، ويجعل من أبي حنيفة مثلا أعلى يجب احتذاؤه؛ لأنه تشفع بجار له سكير عند الأمير ، فأخلى سبيله وكل من أخذ تلك الليلة [٤٤] ، وفي هذا تحد للخليفة الحكم المستنصر ولفقهاء المالكية ، يقول [٤٥] :

بخطب الشاربين يضيق صدري ... وترمضني بليّتهم لعمـري

وهل هم غير عُشّاق أصيـبوا ... بفقد حبائب ومُنوا بهجْـر

أعُشّاق المدامـة إن جـزِعتم ... لفُـرقتها فليس مكانَ صـبر

سعى طلابكم حتى أُريقَـت ... دماءً فوق وجه الأرض تجري

تضوّع عَرفُها شـرقا وغـربا ... وطـبّق أفق قرطبـة بعطر

وقـــال :

تحرّيتم بذاك العدل فيهـــا بزعمكم فإن يـكُ عن تحرٍّي
فإن أبا حنيفـة وهو عـدلٌ وفرّ عن القضاء مسيرَ شهـر
فقيـــه لا يـــدانيه فقيـه إذا جاء القيـاسُ أتى بـدرّ
وكان له من الشُّراب جـارٌ يواصـل مغـربا فيها بفجر

هذا الفقيه الجليل أتى الأمير ، وطلب منه أن يطلق سراح جاره السكير ، وكان له ما أراد ، كما تقدم .

وكان الرمادي في هذه الفترة يلتقي مع ندمائه ، ويشربون الخمر ، ويصفون لونها وحبابها وأدواتها وساقيها ، ثم تقلبت الأحوال بالرمادي ، فاتُّهـم في أيـام الحكم المستنصر بالله هو وجماعة من الشعراء نظمتْ أشعارا في ذم الخليفة الحكم ، ولم يبق منها إلا هذا البيت للرمادي ينتقد فيه على الخليفة كثرة التولية والعزل ، يقول فيه [٤٦] :

يولي ويعزل من يومـه فـلا ذا يتمُّ ولا ذا يتمّ

يبدو أن الشاعر الرمادي نسي ما حدث له – على حسب روايـة ابن حيان – لكن هذه المرة سجن ، ولم تنفع عند الحكم شفاعة . ويرجح أن فترة سجنه كانت قريبة جدا من الحادثة السابقة . يقول صاحب مطمح الأنفس عن سبب سجنه : « وشاعت عنه أشعار في دولة الخليفة وأهلها سدد إليهم صائبات نبلها ، وسقاهم كؤوس نهلها؛ أوغرت عليه الصدور، ونفرت عليه المنايا ولكن لم يساعدها المقدور ، فسجنه الخليفة دهرا ، وأسلكه من النكبات وعرا » [٤٧] .

نستخلص من هذه الرواية أن سجن الرمادي قد طال ، فأخـذ ينظـم الأشعار الكثيـرة وهي مبثوثة في شعر الشكوى والاستعطاف، « وله في

السجن أشعار صرح فيها ببثه ، وأفصح فيها عن جُلّ الخطب لفقد صبره ونكثه » [٤٨] . كما عمل في السجن كتابا سماه (كتاب الطير) في أجزاء وكله من شعره ، وصف فيه كل طائر معروف ، وذكر خواصه ، وذيل كل قطعة بمدح ولي العهد هشام بن الحكم مستشفعا إلى أبيه الحكم في إطلاقه[٤٩].

ولعل إطلاق سراح الرمادي يرجع إلى سنة ٣٦٤ هـ [٥٠]؛ لأن في هذه السنة يذكر ابن حيان أن الخليفة مرض واحتجب عن الناس ، وبعد إبلاله من مرضه [٥١] أعتق كثيرا من عبيده [٥٢] ، ثم « أنفذ تحبيس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذين قد كان اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة» [٥٣] .

كل هذا يدعوني إلى القول بأنه ربما أُطلق سراح الرمادي وبعض السجناء بعد إبلال الخليفة من مرضه ، وبخاصة أنه أكثر من الإحسان وفعل الخير ، كما تقدم .

والمرجح أن لجعفر بن عثمان المصحفي [٥٤] يدا في إطلاق سراح الرمادي؛ هذا إذا اعتمدنا على ما أورده المراكشي من أن الرمادي «كان مختصا بأبي الحسن المصحفي منضويا إليه » [٥٥] . وكذلك المصحفي كان مختصا ومقدما عند الخليفة الحكم عندما ظهر لخاصته بعد إبلاله من مرضه [٥٦] .

من الروايتين السابقتين يمكن لي أن أرجح أن الرمادي أُطلق سراحه زمن الخليفة الحكم المستنصر بالله .

علاقة الرمادي بالمنصور بن أبي عامر :

لقد عاصر الرمادي كذلك عهد المنصور بن أبي عامر ، وكان من المترددين إليه ، ولم تصلنا أمداحه فيه ، ولكن ما يؤكد علو مرتبته عنده ما

حدثنا به المقري في نفح الطيب، قال: « قال المنصور بن أبي عامر للشاعر المشهور أبي عمر يوسف : كيف ترى حالك معي ؟ فقال : فوق قدري ودون قدرك ، فأطرق المنصور كالغضبان ، فانسل الرمادي وخرج وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل يقول: أخطأت ، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضرني لو قلت له : إني بلغت السماء ، وتمنطقت بالجوزاء وأنشدته :

متى يأت هذا الموتُ لا يُلف حاجة لنفسيَ إلا قد قضيتُ قضاءها

لا حول ولا قوة إلا بالله . ولما خرج كان بالمجلس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجد فرصة فقال : وصل الله لمولانا الظفر والسعد ، إن هذا الصنف صنف زور وهذيان لا يشكرون نعمة ، ولا يرعون إلاّ ولا ذمة . وينصح المنصور بالابتعاد عن مثل هذا الصنف، فرفع المنصور رأسه، وكان محبا في أهل الأدب والشعر ، وقد اسود وجهه ، وظهر فيه الغضب المفرط، ثم قال : ما بال أقوام يشيرون في شيء لم يستشاروا فيه، ويسيئون الأدب بالحكم فيما لا يدرون أيرضي أم يسخط ؟ وأنت أيها المنبعث للشر دون أن يُبعث قد علمنا غرضك في أهل الأدب والشعر عامة ، وحسدك لهم؛ لأن الناس ، كما قال القائل :

من رأى الناس له فضـــــلا عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصة ، ولسنا إن شاء الله نبلغ أحدا غرضـــه في أحد .

ويقول : ما أطرقت من خطاب الرمادي إنكارا عليـــه ، بل رأيت كلاما يجلّ عن الأقدار الجليلة، وتعجبت من تهذّيه له بسرعة ، واستنباطه له على قلته من الإحسان الغامر ما لا يستنبطـــه غيره بالكثير .

ثم حذر كل من في المجلس الحديث في شخص دون إذن منه ، ثم أمر بأن يرد الرمادي ، وقال له : أعد عليّ كلامك ، فارتاع منه ، فقال : الأمر على خلاف ما قدرت ، الثواب أولى بكلامك من العقاب ، فسكن لتأنيسه ، وأعاد ما تكلم به ، فقال المنصور : بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فم النابغة بالدّر لكلام استحسنه منه، وقد أمرنا لك بما لا يقصر عن ذلك ما هو أنوه وأحسن عائدة ، وكتب له بمال وخلع وموضع يتعيش به » [٥٧] .

ويذهب صاحب المعجب إلى أن هذه العلاقة الطيبة ساءت بعد نكبة المصحفي؛ «لأن الرمادي كان مختصا بالمصحفي ، وأن الأخير حملـــه على هجو ابن أبي عامر» [٥٨] ، فالتفت المنصور إلى الشاعر الرمادي «وأوسعه عقوبة ونكالا، وأمر بتغريبه فشفع له عنده في أن يتركه ببلده فأذن في ذلك ، غير أنه خرج الأمر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة»[٥٩].

فعاش كالميت إلى أن أدركتـــه الوفاة في آخر أيام المنصور [٦٠] .

والمؤكد أن تلك العلاقة السيئة لم تستمر بقية حياة الرمادي ، كما ذكر المراكشي؛ وذلك لأن الرمادي قد عاش بعد عهد المنصور، وشهد الفتنة [٦١]. وليس بمعقول أن يظل الرمادي معاقبا من قبل المنصور حتى بعد موته وزوال عهده .

والمرجح أيضا أن هذه العلاقة السيئة لم تستمر بقية عهد المنصور؛ استنادا إلى قول ابن سعيد فيه: «إنه كان من مداح المنصور بن أبي عامر» [٦٢] ، والمنصور كان يعتز به ، كما تقـــدم في رواية المقري .

ويرد أحمد هيكل فترة اتهام المنصور الرماديّ إلى أوائل عهد حجابته، أما الجـــزء الأخـــير من حياته فإنه قرّب الرمادي له، واعتز به كثيرا بعد أن صفح عنه لأنه أراد كسبه، واستغلال موهبته الشعرية في الدعاية لعهده[٦٣] .

والروايات تؤكد أن العمر امتد بالرمادي، فشهد عهد المظفر عبد الملك ابن المنصور وحضر الفتنة كما تقدم. قال صاحب مطمح الأنفس: « وتمادى بأبي عمر طلق العمر حتى أفرده صاحبه ونديمه، وهُريق شبابه ، واستشنّ أديمه، ففارق تلك الأيام وبهجتها ، وأدرك الفتنة فخاض لجّتها » [٦٤].

يتضح من هذه الرواية أن الرمادي أدرك الفتنة ، ويجاريه في ذلك الحميدي ، وأنه في هذه الفترة انقلبت عليه الأيام وتوفي سنة ٤٠٣ هـ ، عن عمر يناهز القرن ، فعاش فقيرا معدما [٦٥].

شعر الرمادي:

للرمادي شعر كثير من غير شك؛ وذلك نظرا لنبوغه في قول الشعر، ولما عرف من سرعته فيه ، وللشهرة التي كسبها في عصره بين العامة والخاصة إلى أن كثر حساده ، ولعل الرواية التي أوردها المقري له مع المنصور بن أبي عامر دليل قاطع على نبوغه وسرعته وشهرته في قول الشعر – كما تقدم – حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته ، يقولون : فتح الشعر بكندة وختم بكندة ، يعنون المتنبي والرمادي؛ لأن الرمادي كندي النسبة أيضا ، ومعاصر للمتنبي ، ونظرا أيضا لطول عمره الذي قارب المائة .

ومجمل هذه العوامل أبرزت الرمادي كعلم من أعلام الشعر العربي في الأندلسي تميز بطريقة خاصة في النظم ، فهذا ابن بسام يقول عند ذكر الأديب أبي تمام غالب [٦٦] المقلب بالحجام : « ووجدته قد سلك في الأوصاف طريقة الرمادي ، فغرق في بحبوحة ذلك الوادي » [٦٧].

كما نجد ابن العريف [٦٨] قد أخذ لفظه ومعانيه في بعض أبياته ، التي يقول فيها [٦٩] :

أيها الألثغُ الذي شفّ قلـبي جذ بنطق ولو نطقت بسبِّ
هجرك الراءِ مثل هجري سواء فكلانا معـذب دون ذنب
فإذا شئت أن أرى لي مثيـلا من هواني خططت راءً بجنبي

قلت أخذه عن الرمادي في قوله في غلام ألثغ من جملة أبيات،منها [٧٠]:

لا الراء تطمع في الوصال ولا أنا الهجرُ يجمعنا فنحن سواء
فإذا خلوتُ كتبتُها في راحـتي وبكيت مُنتحبا أنا والراءُ

وليس لدينا ما يفيد أن شعر الرمادي كان مجموعا في ديوان رغم أنه كثير ، حيث إنه لم يبق منه إلا قصائد ومقطوعات مفرقة في كتب الأدب والتراجم والسير التي عرضت للشاعـر ، أو بعـض من اتصل بهم . وكان مما ضاع من شعره قصائده في المنصور بن أبي عامر – كما تقدم – إلى جانب ما ضمنه كتاب الطير من شعره .

وحديثا يعد الأستاذ ماهر زهير جرار أول باحث –حسب علمي– قام بجمع شعر الرمادي؛ وقدم له بدراسة في حياته وشعره؛ ليضاف هذا العمل الفني والتراثي إلى رفوف المكتبة العربية والعالمية .

تألف مجموع شعر الرمادي من أربعين وستمائة بيت ، موزع على مائة وأربعين ما بين قصيدة ومقطوعة ، أكبرها قصيدته في مدح القالي [٧١] وأقلها بيت واحد .

ومن يقرأ شعر الرمادي الذي وصلنا يجده يعتمد المقطوعات القصيرة التي تعبر عن مختلف مواقف حياته اليومية وواقعه الاجتماعي ، هذه المقطوعات تتوزع بصفة خاصة على فن الغزل بالمذكر في أغلبه ، ووصف الخمر ومجالسها ولونها وحبابها وساقيها ، وكذلك الوصف « الذي أرسى له دعائم ثابتة، وفتح فيه أبعادا جديدة ستتكامل مع ابن خفاجة فيما بعد »

(٧٢) ، غير أن هذه الفنون تقلصت لما وجهت بدافع قوي وهو السجن – كما سنرى فيما بعد – إذ انطلقت أشعاره فيه من خلجات الحزن العميق ودوافعه ، وردَّه وضعُه إلى شيء من التأمل في نفسه وفي نهايتها ، وملأ أبياته بالبكاء حينا وبالشوق إلى الانطلاق أحيانا أخرى ، وحلت العاطفة الجياشة محل التصنع الذهني في موضوعاته الأخرى من شعره .

شعر الرمادي في السجن :

تقدم الحديث من أن الرمادي تعرض للسجن في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ، ثم في عهد الحاجب المنصور الذي سجنه هو الآخر بسبب الحاجب المصحفي كما تقدم .

وكثيرا ما يكون الهجاء السياسي سببا في إيصال صاحبه إلى السجن عقابا له ، والرمادي اتخذ مواقف لم ترض الخليفة الحكم والحاجب المنصور ، فسجن في عهديهما .

ففي عهد الخليفة الحكم ألقي القبض على شاعرنا الرمادي مع جماعة من أهل الأدب ، كانوا في موقف لم يرض الخليفة الحكم – كما تقدم – فوصف لنا ظروف القبض عليهم، واقتيادهم إلى سجن الزهراء وهم مقيدون ومغلولون في التوثق، ووصف الذين حزنوا عليه حتى شقوا أثوابهم ، والشاعر من حالة الذهول الذي حل به لو طلب الموت لتغافلت ، وأمام هذا الوضع الصعب يرى أن عينيه قد نفد دمعهما، ولم يبق فيهما ما يؤكد صبره. يقول (٧٣) :

فوافوا بنا الزهراء في حال خلة تلائم لاستيفائهم في التوثق
وحوليَ من أهل التأدب مأتمٌ ولا جُوْذرٌ إلا بثوب مشقَّق
فلو أن في عيني الحِمامَ كروضِها وإن كان في ألوانه غير مشفق

ونادى حمامي مهجتي لتغافلـت فهلا أجابتْ وهو عندي كخنقي
أعينيَ إن كانت لدمعك فضلـةٌ تُثبِّتُ صبري ساعـة فتدفَّـقي
فلو ساعدت قالت أمنْ قلة الأسى تَبقَّتْ دموعي أم من البحر تستقي

لعل وجود الشاعر في السجن دفعه إلى الميل للغزل في المذكر لأسباب خاصـة – كما سنرى – لكنها لا ترقى لتصبح ظاهرة عامة ، كما هو الشأن بالنسبة للغزل في المرأة ، وقد عبر أحمد عبد العزيز على هذه العلاقة بين والحب السجن ، بقوله : « من الجلي أن سجن الجسد يمتد تأثيره إلى الروح حيث تسجن المشاعر والأحاسيس ، ومن ثم فإنها تثور ثورة عارمة محاولة الإفصاح عن نفسها . وأعظم هذه المشاعر عاطفة الحب الذي يولد ويتأجج بين جدران السجون والمعتقلات ، فالنفس الإنسانية دائـما في حاجة إلى من يواسيها ، ويرثي لها ، ويمنحها السلوى ، ويبث فيها الأمل، ويمنحها فوق ذلك الحب حتى تحب الحياة وتبتعد عن اليأس والتشاؤم .

وهكذا فإن الشاعر يستلهم المرأة، ويطلب عونها وحبها له وأسفها عليه وحزنها من أجلـه في وقت الشدة . إنه يتخيلها – كما يرسمها خيال الشاعر العربي غالبا – باكية عليه متحسرة شديدة الزفرات والحرق . وعلى الرغم من الشدائد التي يعانيها الشاعر فإنه يتجلد، ويحاول أن يبدو شجاعا أمامها ، بل – أكثر من ذلك – أنه يهدئ من روعها وفزعها عليه ، ولكن بأسى عميـق وحزن دفين » [٧٤] .

وبعد وصف الشاعر لظروف القبض عليه ونقله للسجن ، فها هو ذا يستلهم المرأة ويطلب عونها وحبها له وحزنها عليه في وقت الشدة – كما عبر عن ذلك أحمد عبد العزيز – في هذا الحوار الذي يديره مع محبوبته أو زوجته التي تطلب منه بأسئلتها التي يستعصى الإجابة عنها إلى أن يعتب

على الدهر ، ويلتمس لها العذر وذلك لجهلها بطبع الدهر ، وهل يستطيع أحد على إعتابه. ثم تسألـــه قائلة : أتظن الدهر يجمع بيننا ؟ فيرد عليها : من لي بظن محقق ؟

ففي هذا الحوار الذي ابتدأ به هذا الجزء من القصيدة ، يستسلم الشاعر لقضاء الله وقدره، ولا يستطيع أن يحقق ما ظـــن ، فيصل إلى بثها حنينه وأشواقه وأمله في أن يجمع شملهما بعد التفرق ، بعد لقاء طيفيهما بأشفاره رغم طول البعاد ، فيجدها باكية ، ويقوم بنصحها بالعدول عن ذلك حتى لا ينفد دمعها ، رفقا بها إلى أوانه ، فقد أصبحت مضيعة ببعده ومزقها العي [٧٥] :

تكلفـــني أن أعتب الدهـــر إنـــها لجاهلة، من لي بإعتاب مُحنَـــق
وقالت: تظن الدهر يجمع بيننا؟ فقلت لها : من لي بظن محقَّق ؟
ولكنني فيما زجـــرتُ بمقلـــتي زجرتُ اجتماع الشمل بعد التفرُّق
فقد كانت الأشفار في مثل بُعدنا فلما التقتْ بالطيف قالت : سنلتقي
أباكيةٌ يوما ولم يَـــأنِ وقتُـــــــه سينفَد قبل اليومِ دمعُكِ فارفـــقي
ومذ لم تَريني أنتِ في ثوب ضائع لعمري لقد جفَّـــت بِعَيٍّ ممـــزَّق

ويرى أحمد هيكل أن هذه المقطوعة من شعره الجيد الذي ينسب إلى فترة أواخر عهد الخليفة الحكم ، وطوال عهد المنصور ، ويؤكد قوله بأنه تحقق فيها كثير من الترابط ، الذي يؤلف فيما بينها ما يقارب الوحدة العضوية ، ويلاحظ عليها صدق التجربة الباعث على حـــرارة العاطفـــة ، وترقرق التعبير المسبب لقوة التأثير ، ثم تلاؤم الموسيقى الشعرية مع الموضوع ورزانته والانفعال وضخامته [٧٦] .

ونجد الرمادي السجين لا يفارقه طيف الحبيب ، فقد أثر فيه العاملان معا، فها هو يسائل محبوبته ، أما يكفيه أنه صار نحيلا متعبا ، يتساقط دمعه غزيرا، وقد تكنفه همان: حزن لسجنه وصبوته ، فتحققت أماني الوشاة والعذال فيه ، وإذا كان همّ سجنه يبدو أثره في وجهه فإن همّ حبه يغيب في أحشائه ، فهو مَعْنيّ بكتمان أمر الحبيب ، فإذا حاول قتل الكتمان بإفشاء سر حبه فإنه يقتل نفسه ، يقول [٧٧] :

نسائلها هلا كفاك نحُوله ونَصبتُه أو دمعُه وهُموله
تكنَّفه همَّان : شجوٌ وصبوةٌ فبُلِّغ واشيه المنى وعذوله
فإن يَستبِن في وجهه همُّ سِجنه فقد غاب في الأحشاء عنكِ دخيله
معنيّ بكتمان الحبيب وحبه فإن يقتل الكتمانُ فهو قتيله

وينسب أحمد مختار البرزة تطور المطلع الغزلي في قصيدة السجن إلى الشاعر الرمادي ، ويراه « بوحا شاكيا يبث الهموم والعذاب الدفين ، فغلبت الذات على الإطار، واتخذت ألفاظ الغزل العاطفية للتعبير عن آلام الحبس، فاحتملت طاقة إضافية واكتسبت قيمة رمزية في سياقها الجديد»[٧٨] .

وهذه الألفاظ مثل : النحول ، الدمع ، الشجو ، الصبوة ، المنى ، العذول ، الكتمان ، « لا تنشر في السجن أطياف الصبابة ، بل ظلال الهموم والآلام، وكأنها يلقي عليها شفافية رقيقة حتى لا تنساح بعنفها وغليانها . فالإطار يعدل هنا من الحدة العاطفية، والعاطفة تجعل جزئيات هذا الإطار رموزا مشعة بمعان خبيئة شفافة » [٧٩] .

ويشير الشاعر إلى من أقبل من طرف محبوبته ، فينظر من ثقب الباب لعله يبصر البرق المرسل من قبلها ، وإن كان وكيلها لا يسمح بذلك ، ويتمنى لو كانت قريبة منه ومن سجنه؛ لأنها الملاذ الوحيد عندما تشتد المحن

وتتأزم ويصعب عليه مواجهتها ، « فالحب هو الصدر الحنون الذي يختبئ فيه الشاعر من مصائب الزمن... ذلك لأن الحب بما فيه من طاقة عاطفية متدفقة يمكنه أن يصنع المعجزات بما في ذلك إبعاد الشاعر عن السجن»(٨٠).

ويعـــلل الشاعر فزع المحبوبة وابتعادها عن السجن؛ لأنه مخشي حتى لو كان مع من يهوى ويحب ، فكيـــف لهذه الوردة الجميلة أن تقترب من سجنه أو تلجه ، وفيه عاشقها الهائـــم بها ، فيقول (٨١) :

وأقبلن من نحو الحبيب كأنـــما تحاشدَ نحوي جفنُـــه ونصوله
دعوني أشِمْ بالباب برقَ أحبتي قواما فلم يسمح بذاك وكيلـــــه
يَعُمُّ فلا يألو حصارا لعلـــه سَيُودي فيردي بثُّـــــه وأليلـــه
فلو كان في هذا الحصار سميُّه لأنساه طولَ السبع في اليوم طوله
لقد راعني سجن فشطَّ ولو دنا من السجن لم يسهل عليَّ دخوله
يعِزُّ على الورد النضير حُلولـــه ولم يك عنـــد المستهام نزولـــه

ولا يكتفي الـــرمادي بوصف ما يعانيه في سجنه ، وهو يرى أن المحبوبة تتقاسم معه هذه الهموم ، لكنه أحيانا يمزج ذلك بالطبيعة ، فتكون كمقدمة لموضوعه « ففيها تتجلى قدرة الشاعـــر في تحقيق الوحدة ؛ حيث يقع كل بيت – بل كل شطر من بيت – في موقعه لا يمكن أن يخرج عنه ، ثم كذلك تتجلى قدرة الشاعر في الربط بين مشاعره وبين الطبيعة » (٨٢) ، فهو يشرك عناصرها الحية والصامتة في البكاء عليه ، فالسحاب يهمي بكاء عليه ، والحمائم من جزعه تهتـــف وتبكي ، بل إنه أشبه بميت يغسله السحاب الواكف ، وتنوح على فقده الحمائم الهاتفة .

وقد ظعنت محبوبته (ليلى) برفقة أهلها وخدمها ، ولكنه هو باق ، فليَلُمِ اللائمون إذن وليعنف المعنفون ، فهم في الواقع متجنون ، فماذا يضيره

منهم جميعا ؟ والشاعر يجد الطبيعة أحست فراق المحبوبة وتخليها، وتأثرت لبعدها ، فها هو يشخص الصباح ، فيتمثل وجهه نحيلا مريضا حزينا بدوره كالشاعر قد فارقه من يحب ، يقول [٨٣] :

على كبدي تهمي السحاب وتذرفُ ومن جزعي تبكي الحمام وتهتف
كأن السحاب الواكفات غواسلي وتلك على فقدي نوائح هُتَّف
ألا ظعنتْ ليلى وبان قطينُها ولكنني باق فلوموا وعنِّفوا
وآنستُ في وجه الصباح لبينها نحولا كأن الصبح مثلي مُدَنَّف

ويتذكر الرمادي آخر عهده مع من اسمها ليلى حين أطفأت حرارة نفسه التي شبهها بالصيف ، برشفة فسكنت وعادت كالشتاء البارد ، ويربط بين حالتها وهي خائفة حينذاك ، وحاله وهو يرسف في القيود ، فيعكس عليها كل ذلك إذ يتمثل خلاخيلها في مشيتها المضطربة قيودا تكبلها ، ووجهت إليه السلام ببنانها اللامع إشارة سريعة ، كأنها البرق ، وكأن معصمها الكافور بياضا، وهذا إحساس نفسي يستوحيه الشاعر من وضعه في السجن، فيقول[٨٤] :

وأقربُ عهدٍ رشفةٌ بلّت الحشا فعاد شتاء باردا وهو صيف
وكانت على خوف فولت كأنها من الرِّدف في قيد الخلاخل ترسُف
وأهدتْ سلاما عن بنان كأنها الـ ـتماع ووحي بارقٌ مُتخطِّف
بمعصمِ كافورٍ بياضا ، تُكنّه بغاليةٍ من صِبغه وتطرُّف

ويضيف الرمادي في هذه الأبيات مسترسلا ، كم جمعتهما الليالي ثم أدبرت تنوح على تفريقهما ، وتتلهف اجتماعهما ثانية. وفي ليلة من ليالي أنسهما قد غمرهما ظلامها بكؤوس الخمر التي تبدو كالوجوه المنيرة ، وهما يرتشفانها إلى أن يظهر وجه الصباح الذي يشبه سيدنا يوسف لجماله ، وينقشع ظلام الليل الذي يشبه لقمان في طول عمره وسواد لونه [٨٥] :

وكم ليلةٍ قد جمَّعتـــنا وأدبـــرتْ تنوح على تفريقنا وتلهَّـفُ
وليلة أنس قد غمـــرنا ظلامـــها بأوجه راح تستنير فتُرشَـــف
إلى أن بدا وجهُ الصباح كأنـــما تحمَّل لقمانٌ وأقبل يوســـفُ

ويشير أحمد مختار البرزة بقوله : «تتلاقى مقاصد الشاعر الأسلوبية بأحواله النفسية؛ حيث تتمازج مشاعره الحزينة مع التعابير والصور الغزلية قديمها وحديثها، ومع الألوان التزيينيـــة من البديع ، فيَخرُج خليط من العمل الأدبي ، يكاد الشعـــور الصادق فيه تطمره كثافـــة العمل اللفظي » [٨٦] ، هذه الإشارة ركز فيها على هذه الأبيات للرمادي [٨٧] .

يتضح مما تقدم أن الرمادي في شعره في السجن قدم لموضوعاته بمقدمات غزلية ، ومع ما يدل عليها من نزعة تقليدية « فإنها في الحقيقة نابعة من طبيعة الموضوع متصلة بـــه ، وهي لا تفقده صدقه وعفويته ، كما لا تنقص من حرارة انفعال الشاعر ، بل ربما كان ذكر المرأة بين يدي القصيدة سببا في ازدياد الانفعال ودرجته » [٨٨] .

وها هو الرمادي في هذه القصيدة – إلى المقدمات في المؤنث – يقدم لها بمقدمـــة غزليـــة في المذكر بثمانية عشر بيتا ، ثم تشفع في سبعة أبيات فيمن سماه سعد وابنه أحمد ، والقصيدة تصـــل إلى خمسة وعشرين بيتا .

يستهل الشاعر قصيدته مستفهما عن سبب امتناع طيف هذا المحبوب، إذا كان السجـــن قد منعه من وصاله ، ثم ينحى باللائمة على نفسه ، فالعيب عيبه ، إذ لم تنم عينه حتى يطرقه طيفه ، فزوال منامه هو علة زوال الطيف وعدم زيارته ، ويفتديه الرمادي ولا ينساه مع ما حل به من بلاء ، مع أن من في مثل حاله من السجن ينسى اسمه ، ويرى أن صدوده أقسى عليه من السجـــن ، حتى إن السجن صار قطعة من صدوده ، وطول اكتئاب الشاعر

جزء من ملاله وهجره ، ويصور هجره مع دلاله بمن يخلط له السم في العسل ، وإن قلب الرمادي ليحسد ترب نعال محبوبه ، كما أن ترب نعاله يحسد قلب الشاعر [٨٩] :

هبوا أن سجني مانع من وصاله فما الخطب أيضا في امتناع خياله؟
نعم، لم تنم عيني فيطرُق طيفُه زوالُ منامي علةً لزواله
فدى الصبُّ من لم ينْسَه في بلاته وينسى اسمه من كان في مثل حاله
ومن صار سجني قطعةً من صُدوده وطول اكتئابي شعبةً من مَلاله
ومن لم يشُب شهدا بسُمٍّ لطاعم إلى أن بدا لي هجرهُ في دلاله
ولم تر عيني حاسدَيْن تباينا عليه سوى قلبي وتُرْب نعاله

ولعل هذا الغلام من طبقة يخشى بأسها؛ لأن الرمادي طوى اسمه حذرا ، أو خوفا على نفسه التي يبغى لها الشفاء ، فإنما يخشى اعتلال الجرح عندما يقترب التئامه ، وما حاجته في التصريح باسمه ، وإنما يكفيه تصريحا أن يصف جماله ، فهو الغصن النضير إذا ما نظر الشاعر إلى قده واعتداله ، بل إنه ليفوق الغصن في محاولة منه تقريب الصورة إلينا، ثم يذكر الرمادي أن ما في شعره من حسن إنما يرجع إلى نفثة محبوبه في فمه قبل قطع وصاله ، فهو إنما ينطق بالسحر الحلال، ويشبه نفسه بابن سيرين الذي اشتغل بتفسير الأحلام وتعبير الرؤى لنفثة نفثها فيه يوسف عليه السلام ، والشاعر متأثر هنا بالقرآن الكريم مستحضر قصة سيدنا يوسف وعلمه بتعبير الرؤى وتفسيرها ، وإذا كان هذا وضع ابن سيرين مع سيدنا يوسف في منامه فما العذر بالشاعر إذا نفث المحبوب في فيه وقت يقظته . يقول [٩٠] :

وإني لأطويه حذارا وإنما يُخاف اغتيالُ الجرح عند اندماله

وما أربي في أن أصرّح باسمه كفاه من التصريح وصفُ جماله
ألا بأبي الغصنُ النضير وإنما كنيت به عن قده واعتداله
فإن فاقه حسن الحبيب فإنما أقَرّب ما أعني وجود مثاله
وما حسن هذا الشِّعْر إلا لنفثةٍ له في فمي من قبلِ قَطْع وصاله
نطقتُ بسحر عندها غير أنه من السحر ما لم يُختلف في حَلاله
كذاك ابن سيرين لنفثة يوسف تكلم في الرؤيا بمثل مقاله
أممتثل في نفثه من منامه فما العذر باليقْظان عند امتثاله

ثم يدعو الشاعر السجين إلى تأمل محبوبه بالنظر إلى صدغيه ، فليصرف الناظر إليهما لحظه كله ، وليتجنب النظر إلى عينيه ، حتى لا يرشقه بنصالهما ، ثم يصف عذاره وخاله ، مستخدما مصطلحات الكتابة والضبط ، كالإعجام أو النقط ، وحرف النون [٩١] :

ألا اصرف إلى صدغيه لحظك كله ودع لحظهُ مستغنيا عن نصاله[٩٢]
ترى فيهما نونين عُطِّل واحدٌ وآخر مَعجوم بنقطةِ خاله
محا كاتبُ اليُمنى دجى العُجمة التي على النون في اليسرى بحسن احتياله
لدُن حُليَتْ بالعَجْم نُون يَمينه وعُطِّلَت النونُ التي في شماله

وفي الاستشفاع والاستغاثة بمن أسماهما سعد وأحمد ، والأول أبو الثاني ويخاطبه بلفظ السيد ، جاعلا من نفسه عبدا يرجوه ويعول عليه ، ولا يجري بباله سواهما؛ إذ إنهما أقوى حباله ، ولذلك فهو يستعين بهما لإخراجه من قعر الهوة التي وقع فيها وهي المطبق ، وهو لم يشفع بأحد سواهما، وكان حريا به أن يشفع بهما وبغيرهما وهو في هذه الحال من الضيق ، ولكنه آثرهما متفائلا بهما ، ففيهما السعد والحمد ، ونعم الفأل ، وإذا صار سعد وابنه معقلا له فلا عذر في إطلاقه من عقاله [٩٣] :

ويا سيدي عبدٌ رجاكم مُعوّلٌ عليكم ولا يجري سواكم بباله
وهل يستعين المرء في قعر هُوَّة لإخراجه إلا بأقوى حِباله
هل ابصرتموه شافعا بسواكمُ وأفسح لعبد وهو في ضيق حاله
وما كان إلا فألُ سعدٍ وأحمد إذا صرَّح الداعون أيمن فاله
وإذ صار سعد وابنه معقلا له فما العذر في إطلاقه عن عقاله
ويا عارضا كالعارض الجون استجز من الفكر ما أعطاك عند كَلاله
لئن أصبحتْ مجهودَ ذهني بِشُطّة فكم قال فيكم فوقها في ارتجاله

وقد سجن الشاعر ، ومعه غلام من أولاد العبيد ، قال « يخاطب الموكل بباب السجن في شأن هذا الغلام :

حبيسُك ممن أتلف الحبُّ قلبه ويَلذعُ قلبي حُرقةٌ دونها الجمرُ
هلال وفي غير السماء طلوعه ورئمٌ ولكن ليس مسكنَه القفر
تأملتُ عينيه فخامرني السُّكْر ولا شك في أن العيون هي الخمر
أُناطقه كيما أقولُ وإنما أناطقه عمْدا لينتثر الدُّرُّ
أنا عبده وهو المليك كما اسمه فلي منه شطر كاملٌ وله الشطر» [٩٤]

ففي هذه المقطوعة التي يصف فيها حال الغلام وحاله معه ، وهو يخاطب الموكل بباب السجن ، وقد أتلف الحب قلبه ولذعته حرقة تفوق الجمر وهجا ، وينعته بالهلال الذي يطلع في غير السماء ، والرئم الذي لا يسكن القفر ، وحين تأمل عيونه انتابه السكر لأنها لا شك هي الخمر ، ويتعمد الحديث إليه لكي يرى در أسنانه منتثرا ، ويختم الشاعر مقطوعته جاعلا من نفسه عبدا للغلام ، والغلام العبد ملكا يتحكم في شاعرنا ، « إنه سلطان الحب الذي يقلب موازين الأشياء ، ويوحد بين العبد والملك ليتكون منهما اسم الغلام » [٩٥] .

ويستنتج بسيم عبد العظيم من البيت الأخير أن اسمه « كان "عبد المليك" فأخذ الرمادي شطر اسمه "عبد" وترك له الشطر الثاني وهو "الملك" . وقد كان الرمادي يلـــوم الأيام على سجنه ، ولكنه عاد يشكرها بعد أن دخل هذا الغلام السجن لأنها قربته منه » [٩٦] .

ولعل الرمادي يشترك مع محمد بن مسعود اليماني المنتسب إلى غسان [٩٧] الذي سجن معه الشريف الطليق [٩٨] – في شكرهما للدهر الذي قرب الرمادي من هذا الغلام الذي يراه ملكا وهو عبد له ، وابن مسعود البجاني كلف بالطليق حين وجد غلاما وسيما، فتصور نفسه أحد اثنين دخلا السجن مع يوسف الصديق رمز الجمال ، فقال يذكر ذلك في سجنه [٩٩] :

غدوتُ في السجن خدنا لابن يعقوب وكنت أحسب هذا في التكاذيب
رامت عُداتيَ تعذيبي وما شعرتْ أن الذي فعلـــوه ضـــد تعـــذيبي
راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها فكان ذلك إدنائي وتقـــــــريبي
لم يعلموا أن سجْني لا أبا لهم قد كان غايةَ مأمولي ومرغوبي

فالسجن أتاح لهما أن يعبرا عن سلوكهما الماجن الشاذ ، وهما بين جدران السجن ، وإن كانا لا يخفيان حقيقة ما يشعران به من أسى وحزن ، فيسعيان إلى الظهور أمام أعدائهما والشامتين بهما بمظهر الرضى ، ويتخذان رفيقيهما المذكورين وسيلة للتسلية .

لقد طرق الرمادي شعر السجن كفن مستقل لذاته أحيانا ، وأخرى كانت مطالعه أبياتا غزلية قد تطول وقد تقصر كما سبق ، فاتخذ منها وسيلة ومسلكا للتخلص إلى موضوعه ، كما قدم له بوصف الطبيعة .

وبالنظر إلى شعر الرمادي الذي عبر فيه عن نكبته ، فإننا نلاحظه – كشأن الشعراء السجناء الآخرين – يحاول بالكلمة إثارة عطف وشفقة الحكام،

ويتخذ من الشعر وسيلة للاستعطاف ويتشفع بها لدى الخليفة الحكم بابنه هشام المؤيد، وكذلك لدى الحاجب المنصور ، ووصف همومه ، وكيف فقد حريته.

وما وصلنا من شعره في السجن كان قد نظمه على البحر الطويل ، وشاع في معجمـــه ألفاظ تدل على مأساته في سجنه بالزهراء ، وتبين حالة الأسى والكآبة التي يعاني منها ، وهي تدل على صدق التجربة .

واتضح بعد دراستنا المتواضعة لشعر الرمادي السجين أن الصور البيانية فيه مختلفة ومتنوعة ، وحلاها بالألوان البديعية هي الأخرى ، وقد استلهم من الموروث الديني والثقافي والأدبي ، المشرقي والأندلسي ، ما مكنه من التأثير في قارئيه ومتلقيه ، الشيء الذي حدا بهم إلى الانفعال معه ، والوقوف على معاناته إلى حد كبير .

هـــوامش وتعليقات :

١ – قال المقري : «ومن كهلان من ينتسب إلى كندة، وهو ثور بن عُفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد ، ومنهم يوسف بن هارون الرمادي الشاعر » . نفح الطيب . تحقيق إحسان عباس . دار صاد . بيروت . م ١ ص ٢٩٦ .

٢ – كناه ياقوت الحمـــوي بأبي بكر ، والذين ترجموا له لم يذكروه بهذه الكنيـــة ، هذا ما يؤكد عدم صدقها . معجم الأدباء . تحقيق أحمد فريد الرفاعي . مكتبة عيسى البابي . القاهرة . ١٩٣٦ . ج ٢ ص ٦٢ .

٣ – ابن بشكوال . الصلة . الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر القاهرة . ١٩٦٦ . ص ٦٧٤ .

٤ – الحميدي . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . تحقيق إبراهيم الإبياري . دار الكتاب اللبناني . بيروت . ١٩٨٣ . ص ٣٩٦.

٥ – ابن خلكان . وفيات الأعيان . تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت . ١٩٦٨ . ج ٧ ص ٢٢٥ .

٦ – ابن سعيد . المغرب في حلى المغرب . تحقيق شوقي ضيف . دار المعارف . مصر . ط ٣ . ١٩٧٨ . ج ١ ص ٣٩٣ .

٧ ، ٨ – ابن حيان . المقتبس في أخبار بلد الأندلس . تحقيق عبد الرحمن علي الحجي . دار الثقافة . بيروت . ص ٥٦ ، ٧٤ .

٩ – آنخل بالنثيا . تاريخ الفكر الأندلسي . ترجمة حسين مؤنس . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ط ١ . ١٩٧٩ . ص ٦٨ .

١٠ ، ١١ – الحميدي . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

١٢ – الضبي . بغية الملتمس . دار الكتاب العربي . القاهرة . ١٩٦٧ . ص ٤٩٣ .

١٣ – ابن بشكوال . الصلة . ٦٧٤ .

١٤ – ياقوت الحموي . معجم الأدباء . ٢ : ٦٢ .

١٥ – ابن خلكان . وفيات الأعيان . ٧ : ٢٢٥ .

١٦ – ابن سعيد . المغرب . ١ : ٣٦٥ .

١٧ – رمادة : موضع بين الإسكندرية وبرقة . انظر : الحميري . الروض المعطار في خبر الأقطار .تحقيق إحسان عباس. دار القلم للطباعة. بيروت. ١٩٧٥. ص ٢٦٨.

١٨ – بطليوس : مدينة بالأندلس ، وهي حديثة ، بناها المسلمون ، وهي مدينة جليلة في بسيط من الأرض . انظر : الحميري . المصدر نفسه . ٩٣ .

١٩ – الضبي . بغية الملتمس . ٤٩٣ .

٢٠ – الرمادي ، يوسف بن هارون . شعره . جمع وتقديم ماهر زهير جرار . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . ط ١ . ١٩٨٠ . ص ١١١ ، الثعالبي ، أبو منصور . يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . تحقيق محمد محيي الدين . دار الفكر . بيروت . ط ٣ . ١٩٧٣ . ج ٢ ص ١٠٠ .

٢١ – أحمد هيكل . الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة . دار المعارف . مصر . ١٩٨٢ . ص ٢٨٤ . هامش ١ .

٢٢ – إحسان عباس. تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة. دار الثقافة . بيروت . ط ٦ . ١٩٨١ . ٢٠٥ .

٢٣ – هو يحيى بن هذيل بن الحكم بن عبد الملك بن هذيل بن إسماعيل بن نويرة بن مالك التميمي القرطبي ، ففيها ولـد سنة ٣٠٥ هـ، ونشأ في بيئة ثقافية مزدهرة ،

في القرن الرابع الهجري ، فتلقى ثقافة لغوية وأدبية ودينية متنوعة عن شيوخ زمانه ، فقـد ذكره الحميدي أنه كان من « أهل العلم والأدب والشعر ، غلب عليه الشعـر فصار من المشهورين به ، وقد سمع الحديث» . جذوة المقتبس . ٣٨١ . توفي سنة ٣٨٩ هـ ، بعد أن كف بصره فأصبح يعرف بالكفيف . انظر ترجمته : ابن الفرضي . تاريخ علماء الأندلس . الدار المصرية للطباعة والنشر . القاهرة . ١٩٦٦ . ص٩٥، الضبي . بغية الملتمس . ٥٠٩ - ٥١٠ ، المقـري . نفح الطيب . ٣ : ٧٣ ، إحسان عباس . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة . ٢١٤ .

٢٤ - إحسان عباس . تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة . دار الثقافة . بيروت . ط ٦ . ١٩٨١ . ٢٠٥ .

٢٥ - ابن بسام . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . تحقيق إحسان عباس . الدار العربية للكتاب . ليبيا - تونـس . ط ١ . ١٩٧٩ . ق ٣ م ١ . ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

٢٦ - الرمادي. شعره. ١١١ . الحميدي . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . ٣٧٠ .

٢٧ - ياقوت الحموي . معجم الأدباء . ٢ : ٦٢ .

٢٨ - الأمير أرقم بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذي النون ، كان أخوه إسماعيل هو أول من ملك طليطلة من بني ذي النون. انظر ذلك: ابن سعيد . المغرب٢ : ١٤، المقري. نفح الطيب٤: ١٣٣- ١٣٤.

٢٩ - ابن سعيد . المغرب . ٢ : ١٤ .

٣٠ - مصعب بن عبد الله بن محمد بن يوسف يعرف بابن الفرضي ، شاعر ، كان حيا قبل ٤٤٠ هـ . انظر : الحميدي . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . ٣٥٢ .

٣١- ياقوت الحموي . معجم البلدان . ٢ : ٥٢ .

٣٢- إحسان عباس . تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة . ٢٠٦ .

٣٣ - سرقسطة: تقع في شرق الأندلس، وهي المدينة البيضاء، وهي مدينة كثيرة الفواكه. وأُخذت من أيدي المسلمين سنة ٥٠٢ هـ. انظر: الحميري. الروض المعطار. ٣١٧ .

٣٤ ، ٣٥ - الحميدي . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . ٣٧١ ، ٣٧٢ .

٣٦ – ابن حزم. طوق الحمامة. تحقيق الطاهر أحمد مكي. دار المعارف. مصر . ط ٣ . ١٩٨٠ . ص ٤٠ ، الضبي . بغيـــة الملتمس . ٤٩٣ – ٤٩٤ .

٣٧ – انظر الرمادي . شعره . القطعة رقم ١١٠ .

٣٨ – الضبي . بغية الملتمس . ٣٩٤ .

٣٩ – هو محمد بن عبد الله بن عبد الواحد ، ويشتهر بفرحون . كان واليا على شنترين بغرب البلاد . انظـــر : ابن الأبار . الحلـــة السيراء . تحقيق حسين مؤنس . الشركة العربية للطباعة والنشر . القاهرة . ط ١ . ١٩٦٣ . ج ١ ص ٢٨٠ .

٤٠ – شنترين بالأندلس مدينة معدودة بكور باجة. انظر : الحميري . الروض المعطار . ٣٤٦ – ٣٤٧ .

٤١ – ابن الأبار . الحلة السيراء . ١ : ٢٨٠ .

٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ – الحميدي . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . ١٣ ، ١٣ ، ١٦ .

٤٥ – الرمادي . شعره . ٧٣ – ٧٤ ، الحميدي . المصدر نفسه . ١٤ – ١٥ .

٤٦ – الرمادي . شعره . ١١٨ ، الحميدي . المصدر نفسه . ٣٧٣ .

٤٧ – ابن خاقان أبو الفتح . مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس . تحقيق محمد علي شوابكة . مؤسسة الرسالة . بيروت . ط ١ . ١٩٨٣ . ص٣١٧ .

٤٨ – ابن خاقان . المصدر نفسه . ٣١٧ .

٤٩ – الحميدي . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . ٣٧٢ .

٥٠، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ – ابن حيان . المقتبس . ١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

٥٤ – أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة الحاجب المصحفي ، من بربر بلنسية ، أديب عمل كاتبا أيام الناصر لدين الله ، وتقلد خطة الوزارة إبان خلافة الحكم المستنصر ، ولما آلت الخلافة إلى هشام المؤيد تصرف في أمور الدولـــة ، لكن المنصور محمد بن أبي عامر صرفه عن الحجابة وأودعه السجن ، واستمرت البلية عليـــه سنين إلى أن مات سنـــة ٣٧٢ هـــ . انظر : الحميدي . جذوة المقتبس . ٢٨٩ ، وفيها المعروف بابن المصحـــفي ، ابن خاقان . مطمـــح الأنفـــس . ١٥٣ – ١٦٦ ، ابن بسام . الذخيرة . ١/٤ : ٥٨ ، الضبي . بغية الملتمس . ٢٥٧ ، المراكشي ، عبد الواحد . المعجـــب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان القاهرة . ١٩٦٠.. ص ٦٢ ، ابـــن الأبار .

الحلة السيراء . ١ :٢٥٧ - ٢٦٧ ، ابن سعيد . المغرب . ١٩٥ - ١٩٦ ، ورايات المبرزين وغايات المميزين تحقيق النعمان عبد المتعالي . لجنة إحياء التراث الإسلامي . القاهرة . ١٩٧٣ . ص٦٩ ، ابن عذارى أبو عبد الله المراكشي . البيان المغـرب في أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ح . س . كولان ، وليـفي بروفنسال . دار الثقافة . بيروت . ج ٢ ص ٢٦٧ ، ابن الخطيب ، لسان الدين . أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك تلمسان . تحقيق ليفي بروفنسال . دار المكشوف . لبنان . ص ٦٠ - ٦١ ، المقري . نفح الطيب . ١ : ٤٠٢ ،أ محمـد فـورار . ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي الأندلسي (- ٣٧٢ هـ) . مجلة صحيفة دار العلوم . القاهرة . عدد ٢٤ . ديسمبر ٢٠٠٥ .

٥٥ - المراكشي . المعجب . ٧٠ .

٥٦- ابن حيان . المقتبس . ٢٠٤ .

٥٧ - المقري . نفح الطيب . ٣ : ٣٦٤ - ٣٦٥ .

٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ - المراكشي . المعجب . ٧٠ ، ٧٠ - ٧١ ، ٧١ .

٦١ - الحميدي . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . ٣٧٣ .

٦٢ - ابن سعيد . المغرب . ١ : ٣٩٢ .

٦٣ - أحمد هيكل . الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة . ٢٨٦ .

٦٤ - ابن خاقان . مطمح الأنفس . ٣١٢ .

٦٥ - الحميدي . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . ٣٧٠ .

٦٦ - هو أبو تمام غالب بن رباح المعروف بالحجام . يقول ابن بسام : « كان معدودا في شعراء عصـره إلا أنـه كان متخلـف في شعره». الذخيرة . ٢/٣ : ٨٢١ ، ويقول المقري فيه : « وكان المذكور ربي في قلعة رباح غربي طليطلة ، ولا يعلم له أب ، وتعلم الحجامة فأتقنها ، ثم تعلق بالأدب حتى صار آية فيه » . نفح الطيب ٣ : ٤١٥ ، انظر : ابن سعيد . المغرب . ٢ : ٤٠ ، ورايات المبرزين لنفس المؤلف . ٨٢ .

٦٧ - ابن بسام . الذخيرة . ٢/٣ : ٨٢١ .

٦٨ – هو حسين بن وليد بن نصر أبو القاسم القرطبي، المعروف بابن العريف (-٣٩٠ هـ) كان نحويا عالما بالعربية متقدما فيها، أستاذ في الأدب، مقدم في الشعر، وله رحلة إلى المشرق، وبعد عودته كان يحضر مجالس المنصور بن أبي عامر الأدبية واللغوية، وأدب أبناء المنصور بن أبي عامر. انظر ترجمته: ابن الفرضي. تاريخ علماء الأندلس١: ١١٤ – ١١٥، الحميدي. جذوة المقتبس . ١٩٤ – ١٩٥ .

٦٩ – ابن بسام . الذخيرة . ١/١ : ٣٠٩ .

٧٠ – الرمادي . شعره . ٥١ ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . ٧ : ٢٢٧ .

٧١ – الرمادي . المصدر نفسه . ١١١ – ١١٧ .

٧٢، ٧٣ – الرمادي . المصدر نفسه . ٤٧ ، ٩١ – ٩٢ .

٧٤ – أحمد عبد العزيز . قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسي . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . ط ١ . ١٩٩٠ . ص ١٠١ .

٧٥ – الرمادي . المصدر نفسه . ٩٣ .

٧٦ – أحمد هيكل . الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة . ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

٧٧ – الرمادي . شعره . ١٠٣.

٧٨ ، ٧٩ – أحمد مختار البرزة . الأسر والسجن في شعر العرب . مؤسسة علوم القرآن . دمشق – بيروت . ط ١ ١٩٨٥ . ص ٦٥٦ .

٨٠ – أحمد عبد العزيز . قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسي . ١٠٤ .

٨١– الرمادي . شعره . ١٠٣ – ١٠٤ .

٨٢ – أحمد هيكل . الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة . ٢٩٦ .

٨٣ ، ٨٤ – الرمادي . شعره . ٨٨ – ٨٩ ، ٨٩ .

٨٥ – هذه الأبيات وردت في شعر الرمادي في قطعة منفصلة رقم ٧٠ ، ويقول إحسان عباس في كتاب التشبيهات لابن الكتاني من تحقيقه. دار الثقافة. بيروت. ص ٣٥ هامش ٤: لعل البيتين من قصيدته «على كمدي تهمي السحاب وتذرف» ، ويرجح بسيم عبد العظيم عبد القادر إبراهيم في كتابه شعر السجن والأسر في الأندلس . جمع وتوثيق. مكتبة الخانجي. القاهرة ط ٢ . ١٩٩٦. المجموع. ٢٨. هامش ٣ –

أن هذه الأبيات الثلاثة من نفس القصيدة ، ونحن نرجح أيضا أن البيتين والبيت الثالث من نفس القصيدة لوجود ترابط بينهما.

٨٦ ، ٨٧ – أحمد مختار البرزة . الأسر والسجن في شعر العرب . ٥٧٠ – ٥٧١ ، ٥٧١ . هامش ١ .

٨٨ – علي لغزيوي . أدب السياسة والحرب في الأندلس . دار المعرفة للنشر والتوزيع . الرباط . ١٩٨٧ . ص ٣٧٣ .

٨٩ ، ٩٠ – الرمادي . شعره . ١٠٨ ، بسيم عبد العظيم عبد القادر إبراهيم . شعر السجن والأسر في الأندلس ، المجموع . ٣٩ – ٤٠ .

٩١ – الرمادي . شعره . ١٠٩ .

٩٢ – وردت كلمة صدغيك في شعر الرمادي ، ولكن أحمد عبد العزيز غيرها لعدم ملاءمة المعنى إلى كلمة " صدغيه " في كتابه قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسي . ٤٢١ ، وأكدها بسيم عبد العظيم في دراسته القيمة لشعر السجن والأسر في الأندلس ، الجمع والتحقيق . ٤٠ .

٩٣ ، ٩٤ – الرمادي . شعره . ١١٠ ، ٧١ .

٩٥ – أحمد عبد العزيز . قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسي . ٩٤ .

٩٦ – بسيم عبد العظيم . شعر السجن والأسر في الأندلس . ١٣٠ .

٩٧ – محمد بن مسعود البجاني اليماني الغساني ، أصله من بجانة ، وسكن قرطبة فنسب إليها، وكان شاعرا مشهورا منتجعا للملوك ، كثير الشعر مليح الغزل طيب القول . كان في حدود الأربعمائة. انظر ترجمته: الحميدي. جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس. ١٥١، ابن بسام. الذخيرة١/١ : ٥٦٢ ، الضبي . بغية الملتمس . ١٣١ ، ابن سعيد . المغرب . ١ : ١٩١ – ١٩٢ ، المقري . نفح الطيب . ٣ : ٣٨٨ .

٩٨ – هو مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر ، ويعرف بالشريف الطليق (٣٥٢ هـ-٤٠٠ هـ)، سجن لقتله لأبيه بسبب جارية، وفيه تفتقت قريحته، وأطلق سراحه بعد أن قضى فيه حوالى ستة عشر عاما. وللطليق شعر كثير وحسن . انظر تفاصيل ذلك : ابن حزم . جمهرة أنساب العرب . تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف . مصر . ١٩٦٢ . ص ١٠٠ ، ١٠٣ ، وطوق الحمامة . ٥٠ ، الحميدي . جذوة المقتبس في تاريخ ولاة الأندلس . ٢٤٣ ، الضبي . بغية الملتمس

. ٤٦١ ، ابن بسام . الذخيرة . ١/١ : ١٠٣ ، ٥٦٣ - ٥٦٤ ، المراكشي . المعجب . ٢٨٥ ، المقري . نفح الطيب . ٥٨٦ ، غرسية إميليو غومس . مع شعراء الأندلس والمتنبي . تعريب الطاهر أحمد مكي . دار المعارف . مصر . ط ٣ . ١٩٨٣ . ص ٥٨ - ٨٢ ، إحسان عباس . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة . ٢٢٣ - ٢٣٥ ، فورار محمد . الشريف الطليق الأندلسي ، سيرته وأهم موضوعاته الشعرية . مجلة العلوم الإنسانية . جامعة محمد خيضر . بسكرة . الجزائر . عـــدد ٥ . ديسمبر . ٢٠٠٣ . ص ١٧٧ - ١٨٩ .

٩٩ - ابن بسام . الذخيرة . ١/١ : ٥٦٣ ، المقري . نفح الطيب . ٣ ك ٣٨٨ .